20 أركان الظاهرة الإسرائيلية وتداعياتها الإقليمية والدولية

يفتح سلوك إسرائيل مع واشنطن مرة أخرى ملفاً خطيراً نطلق عليه الظاهرة الإسرائيلية، وهى ظاهرة يسهل تشخيصها وتأصيلها بلا لبس بعد ستين عاماً من الملاحظة والأدب القانونى والسياسى المكثف الذى كشف عن عناصرها ومخاطرها. هذه الظاهرة تثير خياراً حاداً فى العالم وفى العالم العربى بشكل خاص يتعلق بخيار السلام المطروح إسرائيلياً وأمريكياً فى مسلسل مكشوف لم يعد ينطلى على أحد ولايستر الحقيقة الساطعة وهى أن علاقة واشنطن بإسرائيل هى السبب الأساسى فى هذه الظاهرة، وأن رهان العرب المخادع على واشنطن هو كلمة السر التى غلفت حتى الآن الموقف العربى الذى يحتاج إلى مكاشفة. وقبل تحليل عناصر الظاهرة الإسرائيلية يجب أن نشير إلى أن ملامح هذه الظاهرة كانت بادية فى الكتابات الغربية وحتى اليهودية التى تصورت عالماً خاليا من إسرائيل وشرقاً أوسطًا متحررا من العقدة الإسرائيلية التى ولدت حلقات متتابعة من التوتر والقلق والإبادة والإرهاب للمنطقة والعالم، مما طرح سؤالا بالغ الأهمية فى العالم العربى وهو : هل يمكن حقاً تحقيق التعايش بشكل ما مع هذه الظاهرة دون مضاعفات خطيرة على سلام هذا العالم؟

كان طبيعياً لمشروع استعمارى إحلالى يتشح بذرائع وأوهام دينية وتاريخية ويكشف صراحة عن وجهه وسلوكه المعتمد على التطهير العرقى الشامل أن يحدث

تداعيات فى كل ما يتصل به، ولذلك لخص آباؤنا المسألة بأن الصراع مع هذا الكيان هو صراع على الوجود، وأن الاستعمار الغربى أبي أن يغادر المنطقة قبل أن يستبدل وجوده المباشر بهذا الأخطبوط السرطانى الذى صار الآن يهدد العالم كله.

وقد بلغ من حسن نية العرب أن قدموا مبادرة للسلام مع هذا الأخطبوط بل وسعوا إلى الضغط عليه حتى يتجاوب مع المبادرة، فإذا بالأخطبوط يبحث عن طرق للالتفاف والهروب من التزامات المبادرة وقنص مزاياها، بحيث يبدأ بالمزايا على سبيل التشجيع حتى يصبح فى حالة نفسية طبيعية تمكنه من التفكير فى التجاوب المدروس.

تتكون الظاهرة الإسرائيلية من ثمانية عناصر:

العنصر الأول: مشروع سياسى تم تسويقه وتسويغه بأساطير تاريخية ودينية ثم بناء توافق دولى على إنزاله على أرض فلسطين.

العنصر الثانى: هو ضمان علاقة عضوية بين هذا المشروع والولايات المتحدة التى تقدم له الدعم المادى والمعنوى والحماية الدولية وتفتح له آفاقا واسعة فى الحركة فى كل اتجاه.

العنصر الثالث: فى هذه الظاهرة هو أن هذا المشروع الذى ولد خارج رحم القانون الدولى قد دأب على امتهان قانون الأمم وحفظت واشنطن له حرية العبث بكل قواعد هذا القانون، ولذلك لا يكترث المشروع بقياس العالم سلوك هذا المشروع على قواعد هذا القانون. فلاتعترف واشنطن بأن إسرائيل محتلة لأراضى الغير، كما تعترف واشنطن لإسرائيل بحق ابتلاع فلسطين وقهر الدول المجاورة وممارسة الجريمة والإبادة لأنها كيان استثنائى. وقد عبر أوباما عن ذلك صراحة خلال لقائه مع نتانياهو في واشنطن فى نهاية الأسبوع الأول من يوليو ٢٠١٠ كما منح إسرائيل ما أسماه بالاستثناء النووى، والاستثناء فى عدم الخضوع لأحكام

القانون الدولى، والاستثناء فى أن تمارس ما تشاء من جرائم مادام حقها فى الدفاع عن النفس لامعقب عليه.

العنصر الرابع: هوالطابع الاستثنائي للظاهرة . فالمشروع الصهيونى يعتبر إسرائيل كمنولث يهود العالم لذلك فإنها بيت اليهود وأنه يتعين تثبيت الاعتقاد بأن فلسطين هى أرض إسرائيل وأن اليهود يستردون ملك أجدادهم وأنهم جنس متفوق وهو شعب الله المختار، وهذا سبب التميز والاستثناء فلا تخضع إسرائيل لما يخضع له غيرها من قواعد السلوك.

ولهذا السبب شعرت إسرائيل بالدهشة من غضب العالم من جريمتها ضد أسطول الحرية ومن مطالبة العالم استنقاذ غزة من قبضة إسرائيل، ومن استهجان العالم لمحرقة غزة لأن إسرائيل تعتبر إحراق الفلسطينيين من الطقوس الدينية مثلما يحث رجال الدين عندهم الجيش على التنكيل بالعرب باعتبار ذلك من الشعائر الدينية التى يتقربون بها من الله. وقد بالغ رجال الدين اليهود فى الربط بين السلوك الإجرامى الإسرائيلى وبين العمل الصالح فى التوراة مما يدفع بالعامل الدينى فى الصراع إلى أوسع ساحاته.

العنصر الخامس: هو أن شعور إسرائيل بأنها ظاهرة استثنائية قائمة على أساس التميز العرقى، دفعها إلى التعالى على الأعراق الأخرى وفى مقدمتها الشعوب العربية وخاصة الشعب الفلسطيني. وترتب على ذلك ظهور نظريات السلام والحرب فى هذه المنطقة. إذ تدرك إسرائيل أنها غاصبة وأنها مكروهة وأن زفرات الوسط المحيط بها كان كفيلاً بإحراقها لولا الحماية الخارجية واختراقها للوسط العربى بكل السبل الممكنة فأضعفت مقاومة الجسد العربى وتوحشت كلما لعقت المزيد من الدماء العربية.

العنصر السادس: هو أن هذا المشروع القائم على الغصب الاستعمارى والاستعلاء الدينى والعرقى بدأ يصوغ نظرية القومية اليهودية وأن وجود إسرائيل كساحة ليهود العالم ووكيل الدم عن كل اليهود فى جميع العصور هو تجسيد لحق اليهود فى تقرير مصيرهم، ويرتبط هذا المصير بأعلى درجات استقلال القرار وأن الدعم الخارجى لهم هو فرض سياسى لاتدفع إسرائيل له مقابلاً من هذا الاستقلال، ولذلك تستبيح إسرائيل الاغتيال والتجسس على أخلص الحلفاء وتشهد على ذلك آلاف القضايا المنشورة بين أمريكا وإسرائيل.

العنصر السابع: هو أن هذا المشروع الصهيونى كان قد وصل إلى حد إدانته دولياً بوصفه مشروعاً إجرامياً يقوم على التطهير العرقى ولذلك ساوت الأمم المتحدة بينه وبين العنصرية، وهى من جرائم النظام العام الدولى. ولكن واشنطن تمكنت من قلب الصورة، فأصبحت الصهيونية فى مرتبة الحماية والتقديس يعاقب كل من يجرؤ على المساس بها.

العنصر الثامن: هو أن امتهان إسرائيل للقانون الدولى ومؤسسات المجتمع الدولى واتساع نطاق الجرائم التى ترتكبها قد أشاع حالة من الاستخفاف بهذا القانون وسوف تتسع دائرة الفوضى خاصة فى مجال استخدام القوة والوسائل والأسلحة غير التقليدية مع انكشاف عدم مشروعية الظاهرة الإسرائيلية وخطورتها، فأصبح العالم مترددا بين الشعور باحترام القانون والعدالة خاصة الجنائية فى الدول الديمقراطية وبين مجاراة السلوك الإجرامى لإسرائيل مما فتح الباب أمام ارتباك الحكومات الأوروبية أمام قضائها، واضطرار هذه الحكومات إلى سيادة حالة من الخنوع التشريعى للظاهرة الإسرائيلية التى تعطل حرية الفكر والتعبير وقيم العدل كلما تعلق الأمر باليهود. ولعلنا لاحظنا كيف أصيبت الحكومة

البريطانية بالحرج عندما تم التحايل على القانون وترحيل ليفنى خفية حتى لاتقع تحت طائلة القانون الدولى فى بريطانيا بسبب دورها فى محرقة غزة. ورغم حالة النفاق التى يتسم بها سلوك الغرب مع الظاهرة الإسرائيلية إلا أن الحد الأدنى المتاح فى سلوك الحكومات والقضاء يكفى لفضح ممارسات هذه الظاهرة، وهو ما بدا بشكل ظاهر فى اغتيال الشهيد المبحوح في دبي في يناير ٢٠١٠ وتوابع هذه الجريمة وتداخل هذه الظاهرة مع الأفق الوطني لسيادة الدول الخليفة لإسرائيل،حيث تتوالى حلقات التوتر بين إسرائيل واستراليا وبريطانيا وألمانيا والسويد وكندا وغيرها رغم التعاون الأمني والاستخباراتي بين إسرائيل وهذه الدول.ولكن يبقي المجرمون طلقاء وأن سيادة الإمارات العربية قد انتهكت وأن إسرائيل فعلت ما تريد. ويبدو أن الإعلان عن تورط عناصر الموساد مع هذه الدول قصد بها أن تكون ترضية لدبي بديلا عن ممارسة القضاء الإماراتي لاختصاصه الثابت في هذه القضية.

هذه الظاهرة الإسرائيلية التي ظهرت مع قيام إسرائيل دفعت المحيط الإقليمي والدولي إلى تكييف مواقفها وفق إملاءات المشروع ولذلك فإن أخطر ما يهدد هذه الظاهرة هو التماسك العربي وتحدي عناصر هذه الظاهرة خاصة إظهار الجسارة في تأكيد الحقوق العربية وعدم الاستسلام لابتزاز هذا المشروع.أما ارتباك الدعم الامريكي لإسرائيل فهو من أخطر دواعي إضعاف الظاهرة واضمحلالها فهذا المشروع يتغذي على الضعف العربي أكثر من اعتماده على واشنطن.